

لا ينال العبد محبة خالقه حتى يقف مع نفسه وقفة حاسمة

إخواني :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته : تلقيت خطابكم الكريم ، وتلوته
شاكرا ربي لي ولكم نعمة وأفضاله ﴿ وَإِنْ تُعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُخْصَوْهَا ﴾
فالحمد لله والشكر له .

إخواني : الطلب لقاح الإيمان ، فإذا اجتمع الإيمان والطلب أثمر العمل
الصالح . وجسن الظن بالله لقاح الافتقار والاضطرار إليه ، وإذا اجتمعا أثمر
إجابة الدعاء . قال تعالى : ﴿ أَمِنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرُّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ .

إخواني :

النفس لا تترك مألوفها ومحبوبها إلا لمحجوب هو أحب إليها منه وآثر عندها
منه . وكلما قوى تعلقه بمطلوبه ضعف تعلقه بغيره . وكذا العكس . والتعلق
بالمطلوب شدة الرغبة فيه . وذلك على قدر معرفته به وشرفه وفضله على ما
سواه . قال تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴾ فالحب
للعاجلة هو طبيعة الإنسان وجبلته الأمر الذي لا يمكن التخلص منه إلا بجهد
متواصل ، ونضال دائم مستمر . وقد نبهنا إلى ذلك ربنا سبحانه بقوله عز
وجل : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾
وقال أيضا : ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ وقد علمت إخواني علم
اليقين أنه لا سبيل إلى قطع هذا الأمر إلا بقوة التعلق بالمطلب الأعلى وإلا فقطعه
عليه بدون تعلقه بمطلوبه ممتنع . وقد ذكر الله سبحانه في كتابه ماهية
العاجلة وزوالها كما ذكر ضدها بالدوام والبقاء الأبدى : ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ
وَأَبْقَى ﴾ فمن أراد النفوذ إلى الله والدار الآخرة فلا بد له من وقفة مع نفسه
التي بين جنبيه ، وذلك أمر يقتضيه الإيمان بالله واليوم الآخر وهذه الوقفة
مقصود بها إقناع النفس بفضل الآخرة ودوامها وبقائها ، وزوال الدنيا
وفنائها . فإن الواقع من حال الدنيا يؤكد هذه الحقيقة التي لا مفر عنها ولا
محيص . وهذا مما يساعد المؤمن على إقناع النفس وتحويلها إلى الآخرة والعمل
لأجلها . ولما كان التحول الكلي بالنفس صعب المنال في بداية الأمر وعَدَّ الله
المؤمن بتضعيف الأجر ، ومضاعفة الحسنات من عشر إلى سبعمائة ، وهذه

الزيادة لها أكبر الأثر في سلوكه وتقربه إلى ربه ، ولولا هذه الزيادة التي وعد الله بها عباده لما كان لعمل المؤمن شأن يذكر في حضرة القدس : فإن تقرب المؤمن إلى ربه هو بفضله عليه وإحسانه إليه ، وليس بعمل العبد ولا بفعله . قال تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ فالإيمان بالله واليوم الآخر هو الباعث على العمل فعلا وتركاً . والجزء من الله هو الذى يرفع درجات العاملين ويقربهم إلى الله رب العالمين . قال تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ وفى الحديث القدسي : « من تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا ، ومن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا .. » الحديث . فالشريعة هي العمل . والحقيقة هي الثمر .. فمن غرس جنة في الأرض جنى مثات الجنات قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ • أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ • أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ فكذاك الشأن أيها الإخوان في الأعمال التي يعملها المؤمن للدار الآخرة . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ فالإرادة مصدرها الإيمان ، والإيمان محله القلب ؛ فإذا كان الإيمان قويا وثابتا كانت الإرادة قوية ونافذة وعلى قدر قوتها ونفوذها يكون السعى ، وعلى قدر السعى يكون رضا الله ومحبه ، وقربه من عبده وعلى قدر قربه من عبده يكون الفيض والعطاء ، والتجلى والجزاء ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ وقال عز وجل : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ وقد علمت إخواني وسادتي أن الإنسان بطبيعته يحب العاجلة ويذر الآخرة . والإنسان كمؤمن يحب الآخرة ويذر العاجلة . فالعالمون بالله وكتابه ودينه عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية فاستبان لهم السبيلان كما يستبين للمسالك الطريق المؤصل إلى مقصوده والطريق المؤصل إلى الهلاك . فهؤلاء أعلم الخلق ، وأنفعهم للناس وأنصحهم لهم . وهم المرشدون إلى الهداية . ولهذا برز الصحابة على جميع من أتى بعدهم إلى يوم القيامة ، فإنهم نشثوا بين أحضان الضلال والكفر وعرفوا السبل المؤصلة إلى الهلاك بل عرفوها مفصلة ثم جاء

النبي المختار ﷺ فأخرجهم من تلك الظلمات إلى سبيل الهدى وصراط الله المستقيم . فخرجوا من الظلمة الشديدة إلى النور التام ومن الشرك إلى التوحيد ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الغي إلى الرشاد ، فعرفوا بهذا مقدار ما نالوه وظفروا به فأحبوه ومقدار ما كانوا فيه فأبغضوه ، فإن الضد يظهر الضد . وإنما تبين الأشياء بأضدادها فازدادوا رغبة لما انتقلوا إليه ونفرة مما انتقلوا عنه كما بينت .

وقد علمت إخواني أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فقهوا المعنى المراد من قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ أرسلناك شاهدا لتوحيدنا مقرا بوحدانيتنا مبشرا برحمتنا ونعمنا وأفضالنا وإحساننا إلى عبادنا منذرا بوعيدنا وعذابنا لمن كفر بنا وبك . فقوله سبحانه ﴿ إِنَّا ﴾ يفيد ويتضمن معنى : لا إله إلا الله و ﴿ أَرْسَلْنَاكَ ﴾ يفيد ويتضمن معنى محمد رسول الله ، بالإضافة إلى بيان صفته وصلته بالله المرسل كما يشير إلى عظمته وشرفه وفضله حيث أنزل عليه القرآن ليقرأه على الناس رسالة منه تعالى إلى عباده ثم ذكر سبحانه بعد ذلك مضمون الرسالة ، وأساسها وحقيقتها وجوهرها فقال مبشرا برحمة الله التي وسعت كل شيء بيانا وتفسيرا لقوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ فالرحمن صفته سبحانه في الخلق والإيجاد والإمداد في الدنيا والآخرة . والرحيم صفته سبحانه في جزاء المؤمنين بالنعيم المقيم والخلود الدائم بلا انقطاع ولا انقصاص ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ فالرحمن اسم للذات والرحيم من أسماء الصفات قال تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ يتضمن الأصل الأول وهو معرفة الرب تعالى ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله، وأسمائه الحسنی المذكورة في هذه السورة هي أصول الأسماء الحسنی . وهي اسم الله ، الرب والرحمن واسم الله متضمن لصفات الألوهية . واسم الرب متضمن لصفات الربوبية . واسم الرحمن متضمن لصفات الإحسان والجود والبر ومعاني أسمائه تدور على هذا وقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ : يتضمن معرفة الطريق الموصلة إليه وأنها ليست إلا عبادته وحده بما يحبه

ويرضاه . واستعانت على عبادته . وقوله ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ يتضمن بيان أن العبد لا سبيل إلى سعادته إلا باستقامته على الصراط المستقيم . وأنه لا سبيل له إلى الاستقامة إلا بهداية ربه له ، كما لا سبيل له إلى عبادته إلا بمعاونته . فلا سبيل له إلى الاستقامة على الصراط المستقيم إلا بهدايته ، لأن الإنسان بحكم طبيعته يحب العاجلة وينذر الآخرة . ولذلك أرسل الله رسوله مبشرا ونذيرا ليدعو الناس إلى الآخرة بما يحبهم إلى طاعته وعبادته ، وينذرهم بعقابه وعذابه في حال المخالفة والمعصية قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ وقال عز وجل : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ وهذا بيان لقوله سبحانه ﴿ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ : مبشرا بالجنة ، ومنذرا بالنار . وقوله : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ تأكيد لما سيكون ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ كما هو بيان لتجريد الإنسان من الحول والقوة في ذلك اليوم الذى يكون الجزاء على الخير والشر ، والطاعة والمعصية ، والكفر والإيمان . وقوله : ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ يتضمن بيان طرفي الانحراف عن الصراط المستقيم ، وأن الانحراف إلى الطرف الآخر انحراف إلى الغضب الذى سببه فساد القصد ، والعمل والانحراف إلى الضلال الذى هو فساد العلم والاعتقاد . فأول السورة رحمة ، وأوسطها هداية ، وآخرها نعمة . وحظ العبد من النعمة على قدر حظه من الهداية ، وحظه فيها على قدر حظه من الرحمة . فعاد الأمر كله إلى نعمته ورحمته . والنعمة والرحمة من لوازم ربوبيته فلا يكون إلا منعما رحيمًا . وذلك من موجبات ألوهيته . فهو الإله الحق وإن جحدته الجاحدون ، وعدل به المشركون . فمن تحقق بمعاني فاتحة الكتاب : علما ومعرفة وعملا وحالا فقد فاز من كماله بأوفر نصيب وصارت عبوديته عبودية الخاصة الذين ارتقت درجاتهم عن عوام المتعبدین والله المستعان .

وقد علمت إخوانى وسادتى أن الإيمان بالله واليوم الآخر تفصيلا هو سلاح المؤمن على نفسه التى تحب العاجلة وتذر الآخرة . والنفس هى المطية التى لاغنى للمؤمن عنها فى الدنيا والآخرة ولذلك لابد من إقناعها بالحصول والوصول إلى ما تشتهى وتحب من متاع الحياة التى هى أحب الأشياء إليها ، وذلك بعرض جزاء

الآخرة عليها تفصيلا ؛ فإنها في هذه الحالة ترضى بالمتاع الموعود فتؤثر الحياة الآخرة على الدنيا لما ترى وتلمس من فناء الدنيا وزوالها حيث هذا واقع أمامها ومشهود لها ، وذاك موعود لها ومعرض عليها . قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّاَكِبُونَ ﴾ أما بغير هذا الطريق فلا يتيسر للإنسان قيادتها وسوقها .

وقد علمت إخواني أن قبول المحل لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضده . وهذا كما أنه في الذوات والأعيان فكذلك هو في الاعتقادات والإرادات : فللعبد رب هو ملاقيه . وبيت هو ساكنه فينبغي له أن يسترضى ربه قبل لقائه ، ويعمر بيته قبل انتقاله إليه . فعلى المؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر أن يحرص على وقته لأن إضاعته أشد من الموت حيث إن إضاعة الوقت تقطع المؤمن عن ربه والدار الآخرة . والموت يقطعه عن الدنيا وأهلها . والدنيا من أولها إلى آخرها لا تساوى غم ساعة فكيف بغم العمر ! محبوب اليوم يعقب المكروه غدا ، ومكروه اليوم يعقب المحمود غدا . وأعظم ربح للمؤمن في الدنيا أن يشغل كل وقت بما هو أولى وأنفع للنفس في معادها . قال بعض العارفين : يخرج العارف من الدنيا ولم يقض وطره من شئين . بكاؤه على نفسه . وثناؤه على ربه . سبحانه لا أحصى ثناء عليك ... إلخ .

فالدنيا عند العارفين كامرأة بغى لا تثبت مع زوج وإنما تخطب الأزواج ليستحسنوا عملها . قال بعض الصالحين . « طائر الطُّبَع يرى الحَبَّ وعين العقل ترى الشُّرْكَ » .

أيها الإخوة الكرام : لا تتم الرغبة في الآخرة بمعنى العمل لها والسعى إليها إلا بعرض المبشرات على النفس بصورة محسوسة ، ودرجة ملموسة كأنك راحل إليها بعد قليل من الوقت . وليس ذلك ببعيد ولا غريب ما دام الأمر لله وحده وليس لسواه . وهو الفعال لما يريد . أما مطلق الإيمان بوجود الآخرة فذلك أمر طبعي لكل مؤمن بالله ولو كان من أهل الكتاب . وقد أمرنا الله سبحانه أن ندعوه في اليوم مرات ومرات بالألا يجعلنا من المغضوب عليهم الذين يؤمنون بيقائنها ودوامها ولا من الضالين الذين لا يسلكون الطريق السليم الحنيف . فالفرق كبير بين مطلق الإيمان والإيمان المطلق . قال تعالى : ﴿ اَلَمْ تَلِكْ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ *

هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ
بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١﴾
وقال تعالى في آية أخرى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ فالإيمان بالمبشرات التي جاء بها الرسول صلوات الله وسلامه
عليه يتولد منه اليقين المشار إليه في هذه الآيات وغيرها في الكتاب المبين .
ومشهود أيها الإخوة ومعلوم أن النفس البشرية كما وصفها الله مولعة بحب العاجلة
وترك الآخرة فمن أراد نقلها من حالة مشهودة إلى حالة موعودة لابد له من
استبدال مكان بمكان . وذلك لا يكون إلا بالنظر إلى الآخرة وإقبالها ومجيئها ولابد
من دوامها وبقائها وشرف ما فيها من الخيرات . والتفاوت الذي بينها وبين ما ههنا
فهى كما قال الله : ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ فإذا تم له هذا النظر أثر ما يقضى
العقل إشاره وزهد فيما يقتضى الزهد فيه . فكل أحد مطبوع على أنه لا يترك
النفع العاجل واللذة الحاضرة إلى النفع الآجل واللذة الباقية المنتظرة إلا إذا تبين له
فضل الآجل على العاجل والله وحده الموفق والمعين .

* * * *